قصص

بيوت ورمال

محمد بروحو

إهداء

إلى والدي ووالدتي

تغمدهما الله برحمته

المساء الأحمر.. يغازل غبش الظلمة،
وطيور النوارس ..
ترسم ظلالها على شفق الغروب..
الذي يلون ماء النهر الراكد..
وقنطرة النهر، تتحمل ثقل بعض
العائدين إلى القرية..
وعيناه تلتقطان كل ذلك في خشوع...

نباش منتصف الليل

في أحد مساءات الصيف الدافئة... بين ممرات الأزقة والدروب، وعلى طول الشوارع نزل الجميع يرددون أغنية... حين يترل الليل بمعطف الظلام وترمرم النجوم وجه السماء.. في ذاك الحين يكون النباش يرمرم بقايا الأكياس المتساقطة على جنبات الطرقات.. مساء.. وجوه.. أغنية.. اعتاد أن يقتات من بقايا الأطعمة المتراكمة على عتبات المنازل الفاخرة.. توضع في أكياس.. ينبش فيها بكماشة من حديد.. بحمار وعربة، ينتقل من كيس لآخر ومن قمامة لقمامة.. على طول الشارع تتراءى له أضواء خافتة، تنبعث عبر نوافذ.. يتساءل أو ربما يسائل نفسه عن سر هذه الأضواء.. يصاحب صوت حوافر حماره أغنية يرددها.. يكاد إيقاعها يناسب حركة مشي الحمار.. يعلق نظره نحو زجاج النوافذ.. يتغير لون الضوء ويقف الحمار.. حصل عطب لعجلة العربة.. النباش بجانب عربته تحت النوافذ.. يسمع أصواتا وكلمات خافتة وموسيقى هادئة.. يربط الحمار وهو يحرك أذنيه.. يخرج الأدوات ويبدأ في إصلاح العطب.. دقات المطرقة تختلط بنباح كلب يطل برأسه من فوق السطوح.. يرتجف.. يمسح بعينيه المكان على صورة شبح يتراءى له بعيدا، يقف ثم يهوي.. يكتمل المشهد حين وجد نفسه وحماره وعربته في عالم ليس من عالمه.. بين طيات زمن ليس من زمانه.. أدرك أن هناك مساء ووجوه وأغنية.. خمن حين ذاك أنه ليس المعني بهذه المشاهد، إنه من عالم آخر.. من نوع صدأت عجلات أيامه.. ولربما كانت كذلك منذ بدايتها.. جلس على عتبة .. أغمض عينيه.. دخل فيلا الأنوار المتلألئة، أجساد وقنينات وأضواء وأغنيات.. تزاحم بين الأجساد الساقطة على الأرض، يشتم رائحة لم يألفها، جلس على طاولة يذوق طعم أكل لم يميز مذاقه ولا رائحته..

تحسس جسده حرارة غير عادية تسري في جسمه.. أجساد شبه عارية مشاهد لم يألفها.. تفحص المكان.. اقترب شيئا فشيئا من اللامكان.. نساء ورجال.. فساتين وقبعات.. بدلات أوربية وربطات عنق ملونة.. تتزاحم الأجساد والأشياء على الكراسي الفاخرة.. يمرر يده فوق الأجساد الممددة.. كرر ذلك مرات عديدة.. أحس بلذة.. أخذ منديلا وشم رائحته.. فاق من غيبوبته، فتح عينيه على نباح كلب تربص به، استوى مذعورا وجد نفسه بين بقايا الأطعمة الفاسدة، يشم رائحة النتانة ويقبض على كيس به بقايا عظام أسماك كبيرة.. مد يده يترك قطط الليل تشم رائحة السمك العالقة به.. علق بصره نحو النوافذ المغلقة.. واصل طريقه للبحث عن بقايا الأشياء المتراكمة على جنبات الطرقات.. سمع دقات الساعة المعلقة على حائط الكنيسة، عدها، إنها الثانية عشرة ليلا...

***

متاهات في الزمن الضائع

- درس في القراءة

أوراق تتساقط.. تتمايل على نغمات ريح الغرب.. تهتز على إيقاع مزمار يسمع من وراء تل يبعد بقليل عن الطريق الذي نسلكه كل صباح إلى هناك.. بين أشجار العرعار،يتقدم قافلة الجماعة.. يتمشى وهو يتحسس نتوءها.. نسمات صباحية،تتدافع فوق غابة الصنوبر.. أعشاب تطل برؤوسها من تحت التربة الندية بقطرات ندى ليل خلع عنه ضوء الصباح معطف الظلام. هبوب رياح البوغاز،مبللة بماء البحر الذي يغسل وجوهنا كل صباح.. في وقت مبكر من أيام الربيع الأخيرة من هذا العام.. في موكب اتجهنا نحو" المجهول " نحو مقرات عملنا..

بين أشجار العرعار، توسط الطريق الذي نسلكه يوصلنا إلى هناك.. بعضنا يسير ساعة زمن، والآخرون يسيرون أكثر من ذلك.. أستغل اللحظة بدوري،أبدء سيري نحو الجهة الجنوبية مسرعا وخائفا.. أخاف نزول مطر بطوفان.. ولمعان برق في وحشة الخلاء.. مترددا وخائفا،أتابع سيري في الوحل توحل رجلي، من كثرة تساقطات الليلة الماضية.. قطيع أغنام يؤنسني، بين الغابة الكثيفة غير العالية يتجه نحو المرعى.. خراف تسرع لإناثها، وأخرى لأمهاتها.. أما أنا فأسرع نحو الجهة الجنوبية.. أريد الوصول قبل هطول المطر..

قرب النهر،أتأمل مشهد الجريان.. أرفع رأسي.. سحب تتدافع، تسابقني.. أفكر في وسيلة أعبر بها النهر.. يكثر جريانه.. يتغير لون مائه..أمطار غزيرة في الجهة الشمالية.. يحاول رجل عبور النهر.. ناديته لم يجبني.. يمد رجله يتثبت بشجرة دفلى تتدلى على ضفة النهر.. يشمر.. يضع متاعه فوق رأسه.. يندفع نحو النهر.. يسقط فجأة.. يستغيث.. يغيب فيظهر.. يلوح بيده ينادي دقات تسمع من بعيد.. صورة حيطان متهرئة تساقط جيرها.. أبواب مشقوقة..غالب الزمان

كل هذه الأشياء..يريد أن يغالبني أنا الآخر.. أعانده.. أسمع صدى أصوات مبحوحة، هزمها برد الشتاء.

أخاطب الزمن الضائع.. يجيبني بصمت.. صور يومية.. تفزع العين.. جوابه يحرجني.. أتقوقع في مكاني.. يشد أوتار عودي.. غدت أنغامه غير مسموعة ولا منغومة.. أظل حائرا أجر ذيل الخيبة في ذهول.. أتفحص الوجوه الكاذبة، المندهشة مني ومن عنادي.. لم أستطع أداء أغنيتي.. امتنع عودي عن العزف كما امتنعت حنجرتي عن الغناء.. أصبحت مثلهم، عاندني الزمان، عاندته، فغلبني.. لم يبق سوى الزمن الآتي، وهذه البسمات البريئة، التي أستدير نحوها كل مرة، وأنا أنقل على السبورة..

حروف الهجاء.

***

فضول

صحوت من غفوتي ، على ترنيمة لامست سمعي برفق، ترنيمة كان يصاحبها حفيف أقدام تواصل الخطى..

عاشقان يؤثثان فضاء الحديقة.. يتمايلان ويتغازلان، في جنون بهي وحنان زائد. تتبعتهما بنشوة أعادت لي ذكرياتي، ذكريات العشق والوله، في فتون ذاك الزمان.. كانت الفتاة تلاعب أوراق الشجر.. والفتى الذي يخاصرها، يتحسس أناملها الفضية الناعمة، يداهما كانتا متشابكتين، وكتفاهما متلاصقين..

ائتزرت رجلا كان يراقبهما.. يلتفت يمينا و يسارا. يدور هنا وهناك، يلاعب عكازه في انتشاء وفروسية.. يحدق فيهما، يتتبع خطواتهما.. كان جمالها يؤنس المكان الموحش، فيما كان شعرها الحريري يغازل نسيم المساء.. لازال الرجل يراقبهما.. ما أثارني وأثار فضولي .. تبسمه مرة وتجهمه مرات أخرى. شفتاه لا تكفان عن الحركة.. تباعد العاشقان قليلا، ثم رجعا.. افترشا مكانا قبالتي..

استغلت اللحظة، نحشت ورقة من جيب قميصي، وضعت قلما بين أناملي.. وبدأت أرمرم ملامحهما.. يخاطبها:

- سعيد أن تكوني بجانبي..

تتأمله بشوق ثم تقول:

- وأنا كذلك..

سارقت النظر إليهما ثم إلى الرجل الذي وجدته قد انزوى وراء شجرة غلظ جدعها، وكثرت أغصانها.. هاهما يتلامسان، يتهامسان في جنون وحنان.. يسترق الرجل النظر إليهما.. يحاول أ لا تفلت منه أي حركة من حركاتهما.. أنا الآخر أحاول أ لا تفلت مني أي حركة من حركاته.. يهوي تجاه الأرض ثم يصعد.. خلته يجمع أحجارا لرجمهما.. اتجها نحو باب الحديقة، الساعة الثامنة مساءا.. يبدأ سيره وراءهما.. أسرع أنا الآخر في اتجاه مخالف نحو الباب.. أشبع

فضولي أراقبه ثم أراقبهما.. يقتربان من باب الحديقة.. يخرجان.. بحثت عن الرجل الذي كان يراقبهما لم أجده.. استندت على باب الحديقة.. تاه تفكيري فيما شاهدت.. أفكر في أمر الرجل وأمر العاشقين.. يشعرني باب الحديقة حين لامس سمعي.. صوت الحارس، يطلب مني أن ابتعد.. حان وقت إقفال الحديقة.. استدرت.. تبسمت وسخرت من نفسي حين رأيت أن الذي يقفل باب الحديقة هو الرجل الذي كان يراقبهما.

***

اللحن الأخير

استيقظت على شروق يوم خريفي . مددت يدي لأفتح نافذة غرفتي المحاذية لمخدعي . أبى الباب أن يفتح . الجو بارد في الخارج ، قطرات الندى الليلي ، تبلل الشبابيك الحديدية ، فتزيدها برودة . شغلت المذياع لاطلع على الأخبار الصباحية . كلمات تتدفق متزاحمة بين شفتي . يكسرها صوت المذياع يمتد اللسان يسبكها لتخرج سليمة .

في ركن من غرفتي كانت هناك زهرة بنفسج ، هيأتها في أصيص لتحيا ، لكنها ذبلت بعدما حجبت عنها بناية فرعونية ضوء الصباح وهوائه . عصفورة تسقط داخل غرفته. خذلت حين بحثت عن شربة ماء حاولت الانفلات خارجا لم تستطع. ترتطم بحائط الغرفة مرات حين كررت فماتت في غربة. بغرفته في الجانب الآخر من البيت داخل فضائها الموحش كان يجلس وبين يديه قيثارة. يصنع لحنا. يعزف ألحانا لكبار الملحنين (بيتهوفن) و (موزا ر) . تداعب أنامله أوتارها كما يداعب الحنين دواخله والنوم جفونه. يذكر حين كان يعزف لها موسيقى (فلامي نكو). تملأ فرحتها حواء الغرفة. تحت ضوئها الناعس يحتل مكانا يرتب أنغامه على نوتة يثبتها في ورقة . تتأوه القيثارة نغما كما تتأوه أنفاسه حسرات على فراقها. فيصعد العزف فضاء الغرفة ، يلامس أشياءها معلقة على الجدران. مبعثرة فوق سجاد يبسط بشكل فوضوي. لمسات أنا مله لأوتار القيثارة. نظراته صوب النوتة. دندنة لمعزوفة حزينة. لحن يحكي من خلاله قصة حياة وموت. كانت النغمات في وحشة الغرفة، تنساب سجية تلامس سمعي فيهتل لها دمعي وفيا. فأحس بعذابه. بوفائه . تبكي غمامة الخريف لبكائه كلمات أنينها نغمات تتشظى على عتبة الموت.

يذكر حين كانت تغازله بنظراتها. بضحكاته . بلمساتها . يجمع خيوط سراب فينسج صورة الحياة . يحبك قصة عشق للحبيب . نثرتها الأيام برتابتها . لم يعد له

من وفاء غدا هذا اللحن. منهمك في خلقه. شاحب الوجه، سقيم الجسم . ضاعت نبرات صوته ، تجمدت أجزاء جسده. لا تتحرك إلا عينيه و أنامله. هو لا يريد إلا ذلك. يشخص ببصره إلى ورقة النوتة ويداعب بأنامله أوتار القيثارة . يعزف هذا اللحن ودموعه تنهمر على خديه . إحساسه هو الذي يعزف وقلبه هو الذي يحكي. تتكلم جوارحه عبر لحنه الأخير هذا . توسط خشبة المسرح كل الأضواء مسلطة عليه . عمد أن يجلس و ظهره للجمهور ، يريد إخفاء حزنه . إنه الآن يحكي قصة فراق حزينة بأنغام معزوفة لحن أخير. الصمت يطبق على القاعة كل أضوائها منطفئة إلا أضواء الخشبة . تتردد عبر فضائها من قيثارته جمل موسيقية . أكمل العزف. أضيئت القاعة ، حين استدار لم يكن هناك أحد يستمع إليه كانت القاعة فارغة إلا من طيف أسود يحتل مقعدا في الصفوف الأخيرة.

في ذاك المساء قصدته زائرا غرفته تجاور غرفتي. وجدت بابها نصف مغلقا طرقته بلطف لكني لم أتلق جوابا. دلفت الغرفة بتردد . كان يرقد فوق سريره والقيثارة على يمينه والنوتة فوق صدره والعصفورة ميتة تحت فراشه ناديته لم يستجب لي ، اقتربت منه حركته جثة . سويت القيثارة وعزفت اللحن . حين تركت الغرفة وجدت جمهرة من الناس محلقين باصرين نحوي ، في عيونهم دموع وفي نظراتهم حسرات و على شفاههم بسمات حزينة .

***

عروس البحر

في غيهب الليل ، بين ثلم الأحجار الثابتة في هذا المكان منذ زمن ..

جلس يتأمل ضوء القمر المنعكس على برك غر ماؤها، بين أحجار كبيرة و صغيرة. يخاطب البحر بكلمات نبراتها تشابه صوت الماء المنحدر بين الشقوق . تجيبه أمواج تلاطم الأحجار ..عند اندفاع الماء مدا ثم جزرا..رسمت وجها، تفحصه ليجد وجها يشابهه .. خاطب نفسه بكلمات ، كما يخاطب البحر المكان بهديره..نحت له صورة.. فسأل سكون الليل، متى كان البحر وفيا،حتى يرسم وجها يشبهه..؟

في لحظة يحاول أن يستجمع أفكاره، كما تستجمع السحابة قطرات الماء المتناثرة عبر الفضاء .. ثم يتصيد الكلمات ، كما تتصيد أنواع الأسماك المغرمة بشقوق الأحجار والكهوف غذاءها .. رشات الماء التي تبلله حين تلاطم وجه الأحجار تلامس وجهه ماء ، بينما يلامس الزبد رجله التي تدلت في جوفها ، تساكن الأعشاب التي نمت على جنباتها..

في غربة هذا الليل وسكونه المتلاشي بهدير الموج استقبل البحر ، رمى بناظره في اتجاه ضوء القمر المطل من وراء التلال الضامدة هنا عبر السنين.. تتشتت الأمواج على صلابتها.. كما تتشتت أفكاره أمام صلابة الأيام المزدحمة بالتناقضات التي ضاعت منه منذ سنين.. يتمزق ضوء القمر على الماء ، كما تتمزق الكلمات في فمه المبلل .. يمر وقته كمرور ضوء القمر بين السحاب ونتوءات المكان . حين تزاحمه الأمواج على الشقوق و الثقوب.. الموشومة على وجه الصخور. ينبت الضوء فوقها كما ينبت البريق في عينيه .. باتجاه القمر الذي توسط السماء منذ قليل.

أسماك هي الأخرى ، تحب هذه اللحظة ، تموقعت تحت الماء ، تتبع ضوء القمر المسلط على الأمواج المتدافعة .يتبدد ضوءه فيصعب عليه النفاد أكثر لعمق البحر

.. يتموقع السمك قريبا من سطح الماء ، حتى يتمتع بضوء القمر ، العارض نوره على الأمواج والبرك والصخور .. يتراقص داخلها حين يتحرك الماء صاعدا ثم نازلا يغازل الثقوب والشقوق .. مع هدير البحر ، وسطوع القمر ، بين نتوءات صخور تآكلت جنباتها ، وجد نفسه جزءا من مشهد يكمل لوحة طبيعية حية .. يستجمع الكلمات .. لكنها بهدير البحر وتلاطم أمواجه ، تتلاشى في زبد البحر .. يضل يصارع كلماته ، كما تصارع الأحجار عناد الموج .

تهاجم رائحة البحر خياشيمه .. يتركها تقوم بتنظيف أنفه الذي طالما شم عفونة الزمان ونتانة الأيام .. يشرد بذهنه في لحظة ، كما يشرد الحوت عن مكانه ، حينما تحجب السحابة ضوء القمر .. ينقبض السكون في وهلة يذوب فيها الضياء بالسحب المتدافعة .. تترامى الأمواج ، دون أن يعرف موضعها .

يتحسس المكان . يتتبع هديرها بسمعه ، استخال سحابة . يخلخل هدير البحر سكون الليل الذي يرتبط بسكون نفسه .. شيء يتحرك على إيقاع اندفاع الموج يظهر ثم يختفي ، طالعه اقترب الجسم العائم نحوه .. كاد أن يراه ، سحابة حجبت ضوء القمر المسلط عليه .. لم يستطع رؤيته ، لكنه سمع صوتا فيه نبرات توسل وحنان ..

لم يفهم معنى الكلمات لقد تلاشت بسرعة ، كما تلاشت كلماته قبل قليل لكن هذه النبرات المؤثرة وشمت في نفسه ، حتى عاد يقلدها بصوته ، فيسمع صداها . قد تكون عروس البحر ، جاءت لتسمع كلماتها في نفس المكان الذي جاء ليسمع فيه كلماته.. لكنها كانت تتلشى كما تلاشى منظر الجسم العائم .

لم يبق سوى صدى أنين ، قلده في نفسه ،ثم فجأة ، أطلق صيحة لها أنين يشبه أنين الجسم العائم، الذي سماه : عروس البحر.

البئر

كان المساء وقتا يحلو فيه للأحفاد أن يركنوا إلى جدهم يستمتعون بحكاياتها.
قالت الجدة : حكاية هذا المساء من تراثنا. عمدت إلى تشويقهم بهذه العبارة.
كان الأحفاد يبدون وهم يصغون إليها وكأنهم يحلمون.
تبدأ الحكاية بوصف بئر. تتوسط حقلا، يبست أعشابه وتجمعت به بقايا حشائش وأغصان يابسة وذابلة.
كانت بنات القرية، تجتمعن عندها كل مساء، قريب مغيب الشمس. وكان هذا وقتا مناسبا للسقي وملئ الجرار. ومكان يحبه كل صغار القرية. رغم ما يحبك من حكايات، فلازال الصغار بنات و أولاد، يحرصون كل الحرص على التجمع حولها. وقت يتجاذبو ن فيه أطراف الحديث، فيحكون لبعضهم ما يسمعون ويلتقطون من آبائهم. إنهم بذلك يؤرخون لذاكرة زمان ومكان.
ينهمك البعض منهم في ملئ الجرار، والآخرون يحلقون، يتحادثون. منهم من اتخد مكانا له فوق فوهة البئر. فوهة واسعة مرصعة بالصفاح. يراقص أطرافه الصغيرة المنهوكة بأشغال اليوم والمتعبة.
وأنت مقبل ناحية البئر، يبهرك هذا المشهد المتكرر والمألوف لديهم كل مساء. وقد يسعدك الحظ وأنت الآخر تحضر لقضاء حاجة. أو تفتعل ذلك. فينتابك شعور البراءة يرتسم على وجوههم البريئة. وشفاههم والصادر من أحاديثهم. كلمات تنساب صافية كماء الغدير في فم الجرار. نظراتهم وتركيزهم الجدي على أحاديث بعضهم البعض. يذكرك بأيام الطفولة.
تحكي الجدة، أن غولة كانت هي الأخرى تحرس على زيارة المكان .تتخد من شجرة عرعار، سقمت حتى أنشأت ضلا ضليلا، فوق البئر وما حولها. مكانا لها. لم يثبت أن تعرضت لأحد بأذى.

بعض بنات القرية شاهدنها. حليمة بنت التسع سنوات إحداهن. تحكي لقريناتها عن الغولة وعن جدها الذي كان يشجعها على الذهاب إلى هناك.

كالنت القرية تنشطر شطرين. يتوسطها نهر تفيض مياهه شتاء. ينحدر مصبه نحو الجهة الشرقية، حيث تكثر دور مبنية بأحجار صلبة مسطحة. بينما تتفرق أكواخ بئيسة على مسافات متباعدة من الجهة الغربية. يفيض النهر فوق مساحتها الفارغة.

عند النزول إلى مجرى النهر، يلامس مرءاك كوخ قديم وبسيط. بني من تبن وتراب. وسقف من قش. يسند بأعواد الصفصاف القوية. هو كوخ عمي الهاشمي. سيج بشجر الدفلى المزهر. شيخ يقارب المئة، وربما يتخطاها بسنوات. يعيش وحيدا. بشوش ونشيط. كل أهل القرية متعلقون به. يلاعب أطفال القرية. يضحكهم ويسليهم بحركاته ونكته.

اعتاد أن يفترش مكانا قرب مسجد القرية. مستقبلا جماعة الصغار والكبار. يحلقون حوله. يستأنسون بحكاياته. في مكان يسمى الكعدة. يرخي عقال لسانه فيقص عليهم حكايات وحجايات، بعضها حقيقة وأخرى خيال.

كانت جلسات الحكاية هاته تجري بعد صلاة عشاء كل يوم وتستمر إلى منتصف الليل. لم يحضر عمي الهاشمي هذا اليوم. تساءل أهل القرية عن سبب غيابه.

كان المساء يبدو حزينا، وكانه منذر لحزن قادم، وكان كل أهل القرة يجتمعون كعادتهم قرب المسجد. حين وصل نعي عمي الهاشمي. خيم حزن شديد على القرية وأهلها، فبدت وكأنها ميتة. ترك رحيله فراغا. كان ذاكرة مكان وزمان. رمزا للحكاية. هو نفسه حكاية، سرقت لب سكان القرية وأغنت خيالهم.

توجهوا قاصدين كوخه سيجعلون منه مزارا. تجمعوا أمامه. انسلت حليمة الصغيرة من بين الجموع. ولجت كوخه في غفلة من الجميع. كانت دهشة الصغار عظيمة

وهم يشاهدونها تخرج منه وهي تلبس لباس عمتي الغولة. أركبوها بغلة بيضاء. وساروا بها نحو القرية. والصغار يرددون ويهتفون :
عمتي الغولة .. عمتي الغولة.

***

جبير والخرفان

أصوات الباعة، تتعالى من داخل الدكاكين المشرعة أبوابها، على الشارع الرئيس للحي.. وبجانبها يجلس الآخرون.. يعرضون ما أحضروه من بضاعة. وفي غالبية الأمر هم جباله.. القادمون من قرى النواحي القريبة من المدينة.. يسمي كل واحد بضاعته.. فيرفع من صوته ما استطاع ليلفت انتباه المتبضعين لما معه من سلعة طرية احضرها لتوه..

أيام قليلة تفصلنا ويحل عيد الأضحى.. كان جبير في هذه اللحظة يشق طريقه نحو دكان معلمه الحاج التهامي.. بعد أن خرج من البيت. انطلق كالسهم.. إنه يحمل معه خبرا سيسر معلمه كثيرا. ولربما سيخصص له مكافأة مهمة من أجله.. يتابع جبير هرولته، بين أكوام أجساد بشرية.. حبات العرق تملأ تجاعيد وجهه الشاحب.. حين وصل باب الدكان الذي كان مغلقا.. سأل عنه جاره الحانوتي.. أخبره هذا الأخير بأن الحاج التهامي غادر لتوه لوجهة لم يخبر عنها أحدا..

ظل جبير ينتظره مدة طويلة بباب الدكان.. ولما حضر الحاج التهامي وسأله جبير عن سبب غيابه لم يجبه.. وإشراقه الرضا تنمش محياه..

أين كنت يا حاج التهامي..؟ لقد سألت عنك.

رد عليه باقتضاب.. وما شأنك وغيابي.. ؟

لقد جئتك بخبر سيسرك..

وما هو..؟

زوجتك الثالثة زينب، وضعت توأمين ، بنت وولد..

انشرحت أسارير وجه الحاج التهامي.. وتبسم ابتسامة عريضة وخفيفة.. وهو يمرر يده على رأس جبير وينظر إليه نظرة تركت آثارا في نفسه.. فأعاد جبير

سؤاله على الحاج التهامي..

أين كنت يا حاج التهامي..؟

حدجه الحاج التهامي بنظرة ثم قال:

كنت في مكتب العدول..

اطرق جبير رأسه. لقد أدرك أن الحاج التهامي قد تزوج الرابعة..

لما وصل جبير البيت كانت زغاريد النسوة تملأ فضاءه الشاسع.. انسل خفيفا يصعد الدرج إلى غرفته بالطابق العلوي من البيت.. جلس على أريكة يفكر..

كيف يستطيع الحاج التهامي أن يتزوج من أربعة، حيث يصعب عليه هو الزواج بواحدة..

حين أطل من نافذة الغرفة المشبكة والمطلة على وسط الدار، كان الحاج التهامي، واقفا يستمتع بزغاريد النسوة وهو محاط بخروفين أقرنين سمينين...

***

زواج لم يتم

(إلى كل اللواتي ضعن في متاهات الزمن .

إليكن هذا النص ، في أحداث عايشتها شاهدا في زمان ومكان...)

في قرية من قرى الشمال ، القابعة في جوف الجبال الريفية...
كانت تعيش " مارية " ، وهي تجتر خيبة أملها. حينما اكتشفت أنها حامل...
فكل هذه السنين ، التي طوت من حياتها ، ضاعت منها ، فطارت أحلامها ، كما طار ريش الحمام ، برياح الشتاء العاتية...

هي بنت من عائلة كريمة ، شريفة بالأصالة والوراثة . عاشت كباقي قريناتها فلاحة... خطيبها -إبن عمها- موظف بالمدينة ، ذو مركز محترم.. يحبها كحبه للحياة.. لكن في لحظة ، تهدمت أحلامها التي بنت ، بشهوة شبقاء.. فغدت كعصفورة مكسرة الجناح.. لا تستطيع التحليق ، في فضاء الكون ، ممزقة القلب، محبطة النفس.

لا أحد يعرف سرها ، ولا سر حملها.. ولا يحس بحسرتها ، إلا خفقان قلبها الطاهر البريء..

لقد عاشت حياتها بطهر وعفاف ، راعية للغنم.. كباقي قريناتها ، في قرى المنطقة.. فلا ضير ، على فتات صغيرة السن مثلها ، إذا كلفت بمهمة الرعي.. حينما يلجؤ الأولاد للكتاتيب ، يحفظون ما تيسر من القرآن الكريم ..

هي بنت سدجة بطبعها ، هادئة في تصرفاتها.. عفوية في سلوكها.. زواجها من إبن عمها ، هو كل همها ، فكان حلمها ، الذي عاشت من أجله ، وكرست له حياتها رغم بساطة عقلها ، وقلة درايتها..

كان إحساسها بالحسرة ، على فقدان أعز ما لديها ، يذبلها يوما بعد يوم . فأضحت كزهرة بلا رائحة ، أو كينبوع بلا ماء ..

صاحب الكراسة والقلم

عبأ متاعه وحزم حقائبه . غدا صباحا يوم سفره ، على أ ول حافلة تمر عبر قريته . فهذه آخر ليلة سيبيتها بها ، ولن يعود إليها ، إلا وقد عظم شأنه ، وتحسنت أحواله . هذا ما كان يقوله لأقرانه وأهل قريته .

التهم عشاءه ثم صعد الأدراج نحو غرفة نومه ، بالطابق العلوي من البيت ، تمدد فوق فراشه ، وضع رأسه على الوسادة ، علق بصره بسقف الغرفة . وسرح في خياله . حدج ببصره متاعه ، حقائبه وأوراقه .. إنه مسافر إلى مكان ، سيجعل منه شخصا محترما . له هيبته وقيمته .

هكذا كان يفكر ، وهذا ما كان يردده دائما مع نفسه (مهاجر إلى تلك القارة .. إلى أي مكان في هذا العلم) .

عاش عاشور مزارعا ،كرس حياته خادما لأرض أجداده ، يحــرث ويحــصد . يطوي أكوام البرسيم . كما يطوي الزمان أيامه . كطائر يريد أن يحلق بلا قيود ، في فضاء يمتد فوق سهول ، نقشت بها أمطار الشتاء ، أخاديد شكلت ساقيات .. كان يمد بصره نحوها. من فوق ربوة تحوي قريته ، وكان تنقله بين تلــك الربوع الممتدة من قريته إلى الطريق الرئيسية ، كما أيامه عبر شــهور الــسنة ، صباح فمساء ، ثم ذهاب فإياب ، يجعله يحس برتابة وقنوط ، إنه يجتر خيبة أمل أضاعه ، كما الكثير من غيره . فهو محاصر بعادات وتقاليد ، يحاول أن ينفلــت منها ومن عقالها مهما كلفه ذلك من ثمن . يريد أن يفك قيدها عنه . وعن حياته ، أن يدفنها في ماضيه . إن تم زواجه من بنت تربت غير تربيته ، يريدها شــابة متفتحة . تعشق الحياة . ذات تربية حضرية ، متحررة ، حواره بين أهل بيته أو قريته غالبا ما كان يدور حول هذا الأمر.

(زواجه من بنت متحررة وسفره معها إلى بلد من بلدان الغرب) . غدا الجميع يتحدثون عنه ، فهم الذين يعرفون طموحاته وأفكاره وما يجول بخاطره . بعضهم

كان يشجعه ، وغيرهم كانوا يحذرونه . وهو لم يدرك لحد الآن مخاطر هـــذه المغامرة . يعتقد أن أهل قريته عاجزون عما يستطيع هو أن يحققه . إنهم جاهلون . منهم من يرى فيه ذاك الفتى المتمرد على تقاليد قريته وتقاليد مجتمعه . الـــذي عاش وترعرع في كنفه . كلمات تتمدد في خاطره كلما حاور أقرانه ثم نفسه . كما أيامه في قريته القنوط . يريد أن يكون من الأوائل الذين حققوا لأهل قريتهم شيئا يذكرونه به . هو متيقن من أنه قادر أن يفعل ذلك . هذا ما كان يقوله . تمر أيام وتتوالى شهور وتحل أيام الصيف الدافئة . تكثر حفلات الأعراس وتحل مواسم الأضرحة ، ويكثر الوافدون على قريته لزيارة الأحباب ، أو لحـــضور موسم الولي الصالح سيدي بوزيد . في صيف هذا العام وككل السنوات الـــتي مرت ، سيقام حفل هذا الولي ، يعتبر الاحتفاء به عند أهل القرية ، رمزا مـــن رموز العشق . وطقسا من طقوس تقاليد توارثوها أبا عن جـــد . تحـــل أيـــام الاحتفال فتتقاطر جموع بشرية على مكان الضريح . إنهم وافدون مـــن قـــرى مجاورة وآخرون من مدن بعيدة . وقد يوجد بعض من الوافدين من خارج الوطن يصاحبهم أجانب ، ممن تغريهم سياحة من هذا النوع . مناسبة تتكرر كل عام ، تفكير عاشور هذه المرة ليس كما من قبل . بدأ يعتمد خطة التخلص من عيشته التي مل رتابتها . وله فرصة مناسبة ، فبذكائه وخبرته يستطيع حل مشكلته . فلا بد أن يهاجر حتى يفيد أهله وقريته ..

تدوم أيام الاحتفاء بالمناسبة ، ثلاثة أيام . ففي اليوم الأول من الاحتفال ، حلق رأسه وسوى ذقنه ثم لبس أحسن ما عنده ، هيأ نفسه ، سيدخل مغامرة يريد أن يخرج منها ظافرا ، بدأ تجواله قرب ساحة الضريح ، خص هذا المكان بإقامة عروض الاحتفال . تنصب فيه خيام ، تهيأ عليه أماكن للتبضع ، وبعض المقاهي تقدم للزبائن الزوار مرطبات ومشروبات . جلس إلى طاولة داخل خيمة مـــن الخيام التي نصبت هناك .. طلب مشروبا غازيا وملأ كأسا ، شربها ثم ثانية ، ظل

ينظر إلى الفقيعات الصادرة عن المشروب ، أحس بانتعاش . أيستطيع أن يطـــير كما هذه الفقيعات ..؟ سأل نفسه . خمن أن يسافر بنظره ، عبر أرجاء المكان (مكان الاحتفال) . أناس يتحركون هنا وهناك ، في أعمار مختلفة . قوافل بشرية ، تتقاطر على عين المكان . نظر نحو جهة ازدحمت بالوافدين . كاد يغير اتجاه نظره ، لكنه وبسرعة عاد بنظره نحو تلك الجهة . تبسم ابتسامة تنمشها فرحة ، كأنه أبصر إنسانا عزيزا عليه ، لم يره منذ مدة طويلة . رشـــف مـــن كـــأس المشروب . تمتم في هدوء . وقف ثم جلس . أخرج مشطا من جيب قميـــصه ، بدأ يمرره على شعر رأسه ، ثم انحنى على حذائه ، مسحه بيده ، قد ملابـــسه . يريد أن يحقق حلمه .

كانت فتاة في هذه اللحظة ، تتجه نحوه مسرعة ومبتسمة . ابتسم لها هو الآخر ، وأسرع بدوره نحوها . وقف بقربها ، صافحها ، نظر إليها بنظرة .. دغـــدغت إحساسها ، فضحكت حتى قهقهت. جلس فجلست إلى جانبه . لامس شعرها . تطلع إلى عينيها . كانت فتاة بقد ممشوق وبلباس يكشف كتفيها وفخذيها . سافر عبر خياله . شريكة لحياته كما تمناها. هي الآن أمامه سألها ، من أين هي ؟ . أخبرته ، مقيمة خارج الوطن . أسرعت دقات قلبه متتابعة ، وتحرك شـــعوره بالأمل ، فلربما تحققت رغبته . فرك بين يديه وهو يخاطب نفسه ، إن التي يبحث عنها هي الآن أمامه و بجانبه ، إن تزوجها سيحقق حلمه ويسافر معها .

تحاورا وتساءلا .. خبر منها أنها غير متزوجة . أخذ بيدها واندفع بها داخل خيمة لكتابة عقود النكاح .

نصبت هذه الخيمة لهذا الغرض . جلس وسطها رجل ، وضع كراسة على ركبتيه ودواة قرب قدميه ، وقلما من قصب بين يديه . أخذا دورهما ، ينتظران . إنـــه ينظر إليها ، وهو غارق في تفكيره . يدون صاحب الكراسة والقلم أسماء الأزواج والشهود ،ويثبت عناوينهم في كراسته . حل دورهما ، ازدادت سرعة دقات قلبه

. أحس ببرودة تلف جسده . جف حلقه وثقلت جثته . نزل به إحساس غريب ، لم يعد قادرا على الحركة . حين وصل دورهما ، لم يقو على الوقوف ،بصعوبة تحرك ، وهو يتقدم نحو صاحب الكراسة والقلم ، متثاقلا ومتلعثما . سأله : تريد الزواج منها ؟ أومأ برأسه ، وهو يجيب بصوت خافت . نعم . سألها : تريدين الزواج منه ؟ . أجابت : نعم . سأله : أعزب ؟ . أجاب : نعم . سألها : عزباء ؟ . أجابت : نعم .. بدون بكارة .. انحنى صاحب الكراسة والقلم ، يدون أقوالها . انتفض عاشور من مكانه صارخا وهو متجه نحو باب الخيمة مهرولا ، ويصيح بصوت مرتفع ويردد : لا أريد هذه المغامرة . أسرع دون اتجاه . حين تعثر سقط على الأرض . فتح عينيه وجد عائلته قد تحدق فيه . هو لا زال يصرخ ويردد . لا أريد هذا الزواج . لا أريد هذه المغامرة . الجميع يحدقون فيه باستغراب . سأله أحدهم . أي زواج ..؟ وأية مغامرة ..؟ أجابهم : أن أتزوجها لا .. أن أهجر قريتي لا.. تحسس جسده .

كان ساقطا على الأرض ، بجانب سريره ، استدار فألقى نظرة على متاعه .. تبسم ابتسامة عريضة ثم أغمض عينيه . وفي الصباح ، لما استفاق من نومه ركب أول حافلة. كانت متوجهة نحو المدينة.

***

الرجل الذي تعرى

شراع الموت يبسط أظافره فوق مركب حياته . في حلم بين أحضان عشق وفي ثنايا الأيام الراقصة على نغمات الشدو ضاعت أحلامه. هذا ما كان يردده.. يبدو ذابلا كأوراق التين في عز الخريف. باهتا كضياء الشمس وقت المغيب. يحبك قصة عشق في يوم كئيب وفي لحظة انفعال. بصراخه وعويله.يسمع من مكان بعيد في نفس المكان الذي اعتاد حديه كل مساء. يخاطب اللامكان وينبئ اللازمان.. يمزق الأوراق. يكسر الأقلام.. يشوه وجه الأرض ببصاقه على قدره. في زقاق ضيق من المدينة.. من فوق السطوح رأيته يعبث بما تبقى من ملابسه.. يسب ويلعن كل شيء .

لم أدر ما به.. أذهلني هذا المشهد الغريب. رجل يتعرى من ملابسه.. يدور هنا وهناك. يردد كلمات.. يهمس بسرها لسحام الليل وسجوه. دفعني فضولي كي أتابع هذا الحدث المثير. يدور صوته في أرجاء الحي كما هبوب ريح تندفع بين أزقة تلتوي وتضيق. من فوق السطوح. شهدت حدث هذه الليلة. رغم برودة جوها وحلكتها وسكونها الذي أزعجه هذا الذي أراه وقد تعرى صارخا. أبت نفسي إلا أن تتبع شقاوته. فضولي! دفعني أن أضل جاثيا أراقبه.

يرتطم باب نافذة بحائط يقابل مكان وجودي. أصوات وهمسات.. تنبعث من وراء شباكها الحديدي. بصعوبة، حاولت أن أستوعب ما أسمعه من ذاك الحوار المنبعث من خلف النافذة وأن أستشف منه ربما، سر هذا الرجل الذي يتعرى..

- مسكين ، قالت : ألم أقل لك أنه مجنون..
- مجنون بحبها.. فأنتن النساء لا يهدأ لكن بال حتى تذللن الرجال.
- ليس كل النساء سواء.
- ربما قد يكون ذلك .

نظرت إليه وهي تقول : لنعد لمشكلتنا. متى سيتم حفل زفافنا..؟

اصبري وادع لي بالتوفيق.. سفري مضمون هذه المرة.. كم أتمنى أن تمر هذه اللحظة حتى أراك بقربي.. وأنا غارق في سماع هذا الحوار الذي ينبعث من خلف النافذة، إذا بالرجل العاري يصل قرب المكان الذي أوجد به.. بصراخه وعويله وشتمه لم أعد أسمع من الحوار شيئا.. لحظة يسقط الرجل الذي تعرى على مغشيا عليه ربما.. قط من قطط الليل يتشمم مؤخرته. سكن كل شيء. أصخت السمع. لم أعد أسمع شيئا الآن.. لا صوت الرجل العاري. ولا الأصوات المنبعثة من خلف النافذة.

أحسست ببرودة تلفف جسمي. فالبرد أقرسني. نزلت الدرج في توأد، دخلت غرفتي.

تمددت فوق فراشي، بدأت أعيد ما شاهدت ، شريط هذه الليلة ، رجل تعرى يسب ويلعن، ضاع أو ضيعوه. آخر يريد أن يهاجر سرا. فتاة ضائعة مع تشتت أفكارها، تنبئها بأن هذا السفر قد يضيع خطيبها. أحدا ث تتداخل فترسم كابوسا يقلق النفس.. أنا مثل هؤلاء ضائع. نعم.. لقد أحسست ساعتها بان شيئا أنا الآخر قد ضاع مني.. إنه نومي. الوقت متأخر. يطل قمر الخريف جهة المشرق بوجهه الوضاء. من وراء سحابة أسجمت هو الآخر آفل بعد قليل، عند طلوع يوم جديد. يتيه تفكيري في أحداث الليلة. ينبش في كنهها. سرق النوم جفوني.. استيقظت على هرج الدلالين ومرج البائعين . تركت فراشي متعبا.. خرجت . أسير شاردا . أحداث الليلة ما زالت عالقة بذهني . استوقفني صديق .. لقاؤه يغنيني عن قراءة الجرائد وإطلاع الأخبار . أستدرك من خلاله ما فاتني .. بدأ يحكي لي قصة شاب أراد يهاجر سرا ، لكن خطيبته منعته . في دهشة نظرت إليه ، تعجبت من معرفته لقصة البارحة وكأنه كان حاضرا بجانبي .. وأنا أحاول طرد شرودي ودهشتي بسؤاله واستفساره ، إذا به يخبرني أنها حلقة من مسلسل المهاجر الذي تبثه إذاعة طنجة .. تبسمت في شحوب ، سرت بجانبه

شاردا . أتفكر في أمر الرجل الذي تعرى في نفس المكان الذي اعتاد حديه منذ مدة .. في كل مساء .. يخاطب اللامكان وينبئ اللازمان .. يمزق الأوراق.. يكسر الأقلام يشوه وجه الأرض ببصاقه على قدره .

***

بيوت و رمال

اعتاد على المرور من هنا . تحمل حميره، رمالا على أظهرها . يسوقها نحو أماكن ا لبناء أ و الترميم ، داخل المدينة العتيقة.

ينادونه باسمه . (Juanito) . هو ذاك الاسباني الأصيل، النازح مـــن بـــلاد الأندلس، تجاوز الخمسين من عمره .

يشتغل بحميره ، منذ أ ن وطأ ت قدماه ، شمال المغرب ، أيام التروح الاسباني إلى هناك.

الجميع من أهل البلدة ، يعرفونه . يتعامل معه الكل بحذر زائد ، حازم في عمله . حميره هي الأخرى لا تكل ، فكم من بيت ، من بيوت تطوان ، حملت رمـــال بنائها .

كانت ذا أصل إسباني ، لونها أشهب ، ولها علو كعلو البغال . ذات أرجل قوية، صبورة ومدربة ، تدريبا كان يجعلها ، تمر وسط الأحياء، بازدحامها وفوضويتها، دون أن تحدث أية خسارة .

كانت سبعة ، بعدد أيام الأسبوع ، وكان لكل واحد منها ، يوم راحة ، خاصا به. فحين يعمل الستة ، يظل ا لسابع في عطلته الأسبوعية ، في زريبة ، بمكـــان يسمى (عقبة الحلوف) .

كان موعدي في جلسة المساء ، حين تميل الشمس ، تاركة ظلها قـــرب بـــاب دكاننا. فتنشر حرها المسائي ، على باقي السطوح المجاورة ، والفجوات المنسية . كنت أخرج كرسيا خشبيا ، أجعله مقعدا لجلوسي ، في انتظار قافلة الحمـــير ، المحملة بالرمال . وكان لها قائد ، يتقدمها بناقوس ، علق في عنقه . فكانت تسير على إيقاع خطواته .

كانت شمس الصيف الحارقة ، تدفع حشد المارين ، ليستنجدوا بظـــل الألـــواح الخشبية المثبتة فوق أبواب الحوانيت ، تحميهم من لفحاتها .

وكنت أنا أستغل اللحظة . فأخرج لجلستي المعتادة .. وكانت عند عصر كـــل يوم. أستأنس بظل الكروم ، التي تتدلى بين ألواح متـــشابكة ، والمثبتـــة علـــى الجدران.

يخبرني والدي ، أن وقت الصلاة الوسطى قد حان. أنتظر وباقي الصغار، حـــتى يعود والمصلون من المسجد .

كانت جل الحوانيت ، في هذه اللحظة ، تقفل أبوابها . توجـــه أصـــحابها لأداء الصلاة . نستغل نحن الصغار اللحظة ، للقيام ببعض الشغب الطفولي ، بجانـــب الحوانيت المغلقة .

أذان العصر ، لحظة كانت تحرك في سكون نفسي ، شعورا بالهيبة والوقار .

لا زلت أذكر ، كم كنت أصيغ السمع للمؤدن ، وهو يؤدن ، حتى ينتهي من الأذان . إن هذه اللحظة ، لحظة عبادة . كم كان صوت المؤذن ، وهو يؤذن ، يثيرني ويدغدغ إحساسي . حين ينبعث شجيا ، من مكبر الصوت ، المعلـــق في أعلى الصومعة ، بمسجد حينا بالعيون .

مسجد ، تعلمنا فيه الصلاة وتلاوة القرآن . بصومعته المطلة بعلوهـــا ، علـــى سطوح الحي المتهرئة .

وأنا جالس كعادتي ، إذا بالحمَّار يصل المكان الذي أوجد به . يمر (Juanito) بحميره ، وقد حمل كل واحد منها ، حمله من الرمال .

كان عليه ، أن يقطع بها المسافة ، الفاصلة ما بين باب المقابر- حيـــث توضـــع الرمال- وباب النوادر.

يتكفل هو بحميره ، على حملها ، ثم إيصالها إلى المكان المحدد. مكان إفراغها.

كان مروره ، من هنا ، يعني أن بناء سيقام أو ترميم شـــيء فيـــه .. في اتجـــاه مستقيم. كانت قافلة الحمير ، تمر بخطى متناسقة ، على إيقاع ضربات نـــاقوس قائدها.

كانت لحظة مثيرة ، يختلط فيها الإعجاب بالدهشة ، حين ترى ، سماط القوم ، وقد تسمروا في أماكنهم ، جاحظين . ينظرون إليها بإعجاب . وكأنهم في سرك ، هو الحي..كان عرضا مسرحيا بحق.

صوت الحمَّار (Juanito) ، وهو يخاطب حميره ، ويوجهها ، بلهجته الإسبانية الأندلسية: (Arre Pobre) . سر أيها المسكين.

لفظة يخاطب بها الحمَّار (Juanito) ، حميره على متابعة السير ، نحو المكان المخصص ، لإفراغ الرمال.

(Arre) لفظة ، تجعل من قائد الحمير ، ذي الناقوس ، يغير في اتجاهه يمينا أو يسارا. كان يتم ذلك ، حسب تكرار عدد مرات اللفظة .. وكنا نحن الصغار ، نتهافت على تتبع أحداث هذا السرك الممتع ، في مشهد ، قل نظيره ، في ذاكرة شعب .

كان تناسق خطواتها ، على إيقاع ضربات الناقوس ، وتحركها المتقن . يرسم لوحة ساحرة لمروض ، في شخص الحمار ، ومهرجين في حميره .

كان خطابه لها ، كلمات متناسقة ، بنغمات موسيقية ، إسبانية أندلسية . من تراث (الفلامينكو) .

الآ أنه ما كان يثير فضولي ، فأظل أتبعها ، لمسافة طويلة ، هو تناسق خطواتها ، ونغمات الحمَّار (Juanito) ، المسترسلة عبر طريق الحي ، بصوته الجهوري ..

في صيف ذاك العام . وفي يوم من أيامه . كان قد تأخر الحمار (Juanito) ، عن موعده و لم يمر . وقد تكرر ذلك طيلة أيام الأسبوع ، فأحسست بأني فقدت شيئا كان ينعش ذاكرتي .

وفي إحدى المساءات ، بينما كنت جالسا كعادتي . تناهى إلى سمعي ، صوت ناقوس يسمع خافتا . قفزت من مكاني كالمذعور ، ولحظة ، بدأت أرقب قافلة

الحمير ، تقترب نحو مكان وجودي . الحمار وراءها يوجهها ، بصوته وسوطه . مازالت الحمير بعيدة . صوت الحمار لا يسمع جيدا .

لحظة . ثم بدأت كما قبل أسمع صوته ، بشكل أوضح . كان فيه شيء من التغيير. لم يكن بالصوت ، الذي اعتادت أذني سماعه .

قافلة الحمير تقترب ، تمر أمامي ، أنظر إليها، هي نفسها . كان صوت الحمَّار الذي تناهى إلى سمعي ليس هو .. الحمَّار متستر وراء حميره . ضائع في زحمة المتبضعين .

ها هو يقترب . أرقبه من وراء الحمار الأخير . حدجته ببصري . تفحصت لباسه ، القبعة هي نفسها ، القضيب الذي يهش به على حميره ، هو ذاته ، لكن هو ليس (Juanito). الذي أعرفه . إن الذي عرفته إسباني ، أما هذا فمغربي .. لكنها نفس الحمير . لماذا لم يأت ..؟ أين هو ..؟ أين ذهب ..؟

أسرعت إلى الحمَّار ، سألته وأنا أتفحصه . نظر إلي مبتسما ثم أجابني : أنا هو.. كان (Juanito) . في هذه اللحظة ، يرقد جثة بمقبرة المسيحيين ، التي كانت توجد في أعالي جبل درسة .

صعدت طريق الجبل ، مسرعا ألفها . كان قبره لا زال حديث البناء . تغطيه أكاليل زهور . وقفت أنظر إليه ، من باب المقبرة الحديدي . وكان مغلقا .

كانت تقف أمامه عجوز إسبانية . يلفها معطف أسود ، وكانت بيدها باقة ورد أصفر. استدارت نحوي .. شخصت إلي ببصرها ، ثم غابت وسط المقبرة .

كانت تخطو بخطى وئيدة . ترسم خطواتها على التربة المبللة ، بندى الخريف.

***

حفلة تنكر

يعود بعد غيبة طالت عمرا. صبية كبر سنهم وشباب تدلت لحاهم، وكهـول تقوست ظهورهم.

إنه مشهد مألوف في رحى الأيام الدائرة بلا توقف. تطوي بدورانها عمر الدهر، فعمر الإنسان. ليست الوجوه هي نفسها التي ألفها. هو الآخر سـقم جـسمه وابيض شعر رأسه، وتجعدت أسارير وجهه. عملت فيه رحى الأيام ما عملـت فيهم تغيرت كثيرا من الأشياء فيه.

نبرات صوته وحدها لا زالت كعهدي به قوية و ثقته بنفسه لا تزال أيضا. كيف لا ؟ وهو الذي حارب الاستعمار وكافح فلوله من أجل الوطن. لقاءي به كان بعد عشرين سنة مضت. في أحياء المدينة العتيقة تربينـا بكلماتـه ونـصائحه وحكمه.

إنه السي امحمد صاحب (اسطانكو) السجائر كما كان يحلو للبعض أن يسميه. أتذكر همساته وشطحات كلامه. فأظل أنصت إليه حين وقوفي قـرب بـاب دكانه، أرقب حركة المارين أيام عاشوراء. كان يردد على سمعي مرارا :

أراها ضائعة وهم وراءها يلهثون.

فأسأله مازحا : (شكون هي هاد الغزالة) فيقول لي:

وكأنه يصحح صيغة سؤالي قل : ما هي السي يوسف ؟ إنها الـدنيا ، أراهـم يعطونها أكثر مما تستحق، فرغم قذارتها فالكل يحاول أن يظفر بها .

في حفل التنكر هذا كل شيء مباح. عض وافتراس. أظل أنصت إليه وأنا أتكئ على باب دكانه. تمتلئ الدكاكين هذه الأيام بلعب عاشوراء، تكون حركة الناس فيها ليست كباقي الأيام (التباحير) الراقصة في فضاء الحي و(التعاريج) المـصففة أمام أبواب الحوانيت. تؤثث المكان.

كنا ندرك من خلال كل ذلك أن هذه الأيام، أيام عاشوراء. كانت الإيقاعات المنبعثة من بين الأزقة والدروب توحي بأن هذه أيام ليست كغيرها. كنت أفضل سماع الدف دون نقره. وأن أحملق في اللعب دون أن ألمسها. يرفع السي امحمد من صوته حتى أسمعه. بصمات نقر الإيقاع لا زالت مندسة بين شقوق جدران الحي الرطبة. كان كلما وقف صباح كل يوم بباب دكانه وهو يهم بفتحه أحييه ، فيمسك بيدي ويظل كذلك وهو يذكرني بما فات من أيامه وبمغامراته ، حلوها ومرها . فيحكي عن أحواله وأحوال عائلته.

أنصت إليه باهتمام زائد وأرد عليه المرة تلوى الأخرى بإيماءة من رأسي. يحدثني فأرجع بذاكرتي ، بعمري عشرين سنة ولت .

أتذكر أن دكانه هذا كان مكانا للقائي به . جالسته تلميذا فطالبا ثم موظفا . كنت أخطئ كم من مرة ، حين أحاول مفاتحته في موضوع ما، فيحرك سبابته واضعا إياها على فمه . فكنت أفهم من خلال حركته هذه أنه يجب علي الآن أن أسكت . اعتدت على ذلك، إنه موعد نشرة الأخبار المسائية . كنت أرى فيه شهامة وعزة النفس . تبخر كل شيء بمرور الأيام والأعوام . الكثيرون هنا في حفل التنكر هذا من أيام عاشوراء ، غيروا هوياتهم ، وضعوا على وجوههم أقنعة مستعارة ، تشبه وجوه الخنازير والكلاب والقطط . يسترخون بأبدانهم وبطونهم المتدلية على سراويلهم الضيقة . اجتمعوا يغنون ويرقصون . أما شبيه السي امحمد فقد انزوى وحيدا ، يفرقع أصابع يديه في زاوية تحت الدرج .. يضعون فيها نفاياتهم وما فاض عن حاجاتهم . اختار المكان أو فرضوه عليه لا يهم ذلك . المهم أن يكون حاضرا بينهم في حفل التنكر هذا.

كانت مهمة شبيه السي امحمد أن يحضر كل ما يحتاجونه للحفل ، من أكل وشراب وكم كان يحب أن يحرص على نقل الأشياء ، ثم إحضارها بأمانة . ورغم ذلك ها هم الآن يهملونه . تركوه مع نفاياتهم يحرس ما زاد عن حاجاتهم

. جلس متأملا .. يشاهد رقصاتهم وقبلات العاشقين وسخافات التائهين ، في ممر الزمن المزدحم بالتناقضات. بدأ وهو مندس في زاويته يردد ما جادت به قريحته . في وحدته وخلوته كان يؤنس نفسه . يردد فقرات من قصيدته التي انتهى مـــن كتابتها أخيرا . والقصة التي لا زال يبحث لها عن عنوان. بدأت تخرج الكلمات من فمه. تصف حفل التنكر هذا، كانت كلمات بلا صوت. اعتمد في إلقائهـــا على تحريك شفتيه أو ربما تهيأ له ذلك. قد يكون صوته بَحَّ من كثرة كلام هذا اليوم. ففي هذه المناسبة لابد له أن يتكلم. أن يقول ويفعل كل شـــيء. لكـــي يسمع غيره. أحس بأن كل شيء يتحرك أمامه، دون صوت. بدأ يصيح بأعلى صوته. الجميع غارق في رقص ماجن. يرى ضحكات لكنه لا يسمع أصـــواتها، يشاهد رقصات لكنه لا يدرك إيقاعها. تحرك من الزاوية تحت الدرج. اندفع نحو ساحة الرقص. بدأ يرقص ويغني. يتحرك من مكان لآخـــر يلامـــس بمؤخرتـــه مؤخرات الراقصات، أخلوا له المكان، تركوه وحده..

ينظرون إليه، يبتسمون له، يضحكون ويصفقون. لكنه لا يسمع شيئا. وقف وقد توسطهم، يتأملهم. يمسح المكان بعينيه. الكل يحدجه بنظراته. هو يرى حركاتهم ولا يسمع أصواتها. يستمر تصفيقهم لكنه لا يسمع شيئا. تيقن أنه أصبح أصم.

كيف...؟ متى...؟ لماذا...؟

أسئلة طرحها عليهم، على الجميع. بحركات و بدون صوت.

***

حضور بلا دعوة

في نفق ظلمة ليل، بشتاء بارد وسط شارع طويل، ينطفئ بعض نوره. يسير متباطئا في وقت متأخر وجو بارد كجو هذه الليلة. بحاله المقزز وبثياب رثة متسخة عفنة، ولحية كثة مهملة مغبرة، وشعر أشعث مقمل.

عجلات أيامه مسرعة تدور. دورالها يراقبه كما يراقب عقارب الساعة القديمة،يربطها على معصمه. يحاول تحديد من الأسرع من الآخر؟ أ أيامه أم عقارب ساعته؟

على أرصفة الشوارع، كلاب شاردة، تجمعت حول بقايا طعام، تبحث قرب وفي حاويات النفاية. أهملت في بعض زوايا الشارع. إنه تائه في ليل بارد. ضائع بين أعمدة نور باهت. يتفوه بكلمات ساقطة، كلما سمع صدى اسمه يتردد في فضاء آخر الشارع.. عباس أيها السكير ارم بالكأس. (أ عباس البوال فالكاس). كان عباس من أبطال زمانه. (فروسو). كان يحلو له أن يلقبوه بذلك. يبيح كل شيء لنفسه، سرقة. زنا. شرب الخمر. تدخين الكيف والحشيش. برودة الجو تلف المكان. بخار التنفس ينطبع على زجاج نوافذ وأبواب المقاهي المغلقة. يحجب رؤية ما بالداخل. صفعات حذائه للأرض، مرة بعد أخرى إيقاع أغنية يرددها مع نفسه. يتمايل. يسقط على الأرض. نوافذ يحجبها الظلام، يسطع نور من إحداها، تقابل مكان سقوطه، يفتح بابه ثم يندفع رأس مطل إلى الشارع. جهته. يحاول الرأس أن يستطلع أمر الرجل الساقط على الأرض. إنه رأس نزيهة اللعوب. اعتادت في مثل هذه الليلة أن تحدث مفاجآت. ليلة ينكسر سكونها على إيقاع الحفلات. حفلات راقصة. حفلة عرس داخل قاعة للأفراح، في الشارع الخلفي. زغاريد نسوة. تطبيل وتزمير(الصلاة والسلام عليك يا رسول الله..) .

يتوزع المدعوون، داخل قاعة الأفراح، يرشفون كؤوس الشاي المنعنع والمعطر بماء الزهر. يتناولون الحلويات. بعضهم يتتبع الرقص والآخرون منهمكون فيه.

تفتح نزيهة نافذة غرفتها المطلة على الشارع المظلم بدفتيها. إنها تحب هذه اللحظة.

كان الليل يرخي بسكونه على الكل. أبى جفن عينيها أن يطبق ثانية. لقد استيقظت من حلم مزعج على نغمات موسيقى الحفل. حركت في نفسها، إحساس الأنوثة، تذكرت. تمنت حلول ذاك اليوم الذي تعزف فيه موسيقى حفلتها. حلم كما كل الفتيات. سرحت بخيالها نابشة في ذكريات مضت وولت. في صور لازالت عالقة بذهنها. في ذكرى أيام تهاوت، فاندثرت معها ذكريات جميلة. سفره. مصطفى الذي وعدها بالزواج. مغامرته القاتلة. ركوبه البحر دون استئذانها. ضيع أملا في حياتها. حين انقطعت أخباره عنها. جعل من تلك اللحظات سرابا وذكرى مؤلمة. ضاع كل شيء في دوامة الحياة. في رحى زمن غادر. لحظة تعايشها. طيرت النوم عن جفونها. نظراتها الشاردة في اتجاه الشارع المظلم. فكم من ضائعين تاهوا ومتاهات الليل ورتابته. هاهو يأتي كغيره. إنه عباس السكير. ينهض من المكان الذي سقط فيه. يرفع بصره في اتجاه نافذة غرفتها، يترنح في مشيته يظهر حاملا قنينة الخمر تحت إبطه، كيف يسطنع السكر. يتمايل حتى يكاد يسقط ، يلامس الجدران وأبواب الدكاكين المغلقة، بأسماله النتنة. لوح لها بيده في الهواء ثم تابع سيره في اتجاه قاعة الحفل. نزيهة تتبع خطواته بنظراتها الشاردة ولربما تساءلت عن سبب تسكعه.

حين وصل باب قاعة الحفل، كانت موسيقى الراي تسمع من داخلها. يصاحبها صخب ولغط المدعوين. تحرك شعور الفرح داخل نفس عباس. شعور دغدغ إحساسه. بدأ يترنح وكأنه يستعد للرقص. انسل داخل القاعة. اتخذ لنفسه مكانا وسط الراقصين ثم بدأ يعرض فنون رقصات اكتسبها من كثرة ما شاهد من أفلام هندية طوال حياته. صعد مع المدعوين، إلى غرفة الطعام، وجبة عشاء هذه الليلة ستكون دون شك دسمة، ليست كما اعتاد كل ليلة كسرة خبز وشاي بارد،

إنها وجبة غنية باللحم المختر والدجاج المحمر. استدار مع المدعوين على طيفور العشاء. لازال جسمه يردد إيقاع رقص الجماعة . وهو محشو بينهم في مكانه. تراقب عيناه باب الغرفة. ظهر أحدهم يحمل بين يديه طبسيلا به ثلاث دجاجات محمرة. جحظت عيناه. انقض بسرعة الصقر على واحدة منها وهرول نازلا إلى تحت، في اتجاه الباب. الدجاجة المحمرة بين يديه. شحمها وزيتها يقطران على أسماله العفنة. أسرع نحو باب الخروج. موسيقى الراي تشنف أسماع المدعوين. توسط القاعة. بدأ يرقص على إيقاعها. ويرقص الدجاجة بين يديه. قبلها قبلة ثم لعق معها زيتها و أسرع نحو الخارج. افترش مكانا قبالة نافذتها. نزيهة لازالت تطل برأسها. بدأ يأكل الدجاجة، يقطعها قطعا، ينتف منها ثم ينظر إلى نافذتها. نزيهة تراقبه بفضول، صوت عبد الحليم يردد (حاول تفتكرني..). عبر نافذتها. هاهو يحضر الحفل، ويأتي ببرهان الحضور. دجاجة محمرة يتعشاها أمام أعين قطط الليل وكلابه. أبى إلا أن يكون عشاءه قرب نافذتها. أتم عشاءه على مواء القطط ونباح الكلاب.

كان الليل صامتا في سكون ونور غرفة نزيهة انطفأ قبل قليل. ودفتا النافذة قد أغلقت. نهض. يسير متباطئا في وقت متأخر. في جو بارد. صفعات حذائه للأرض مرة بعد أخرى، إيقاع أغنية يرددها مع نفسه. يتفوه بكلمات ساقطة كلما سمع، صدى اسمه يتردد في نهاية الشارع.

عباس أيها السكير ارم بالكأس..

***

أفواه مغشوشة

يجلسون كما ألفوا، كل مساء. عند عصر كل يوم. في نفس المكان والزمان. يلقون بأبدانهم المتهالكة . على كراسي، تحيط بطاولات، تهرأ خشبها، وصدأ حديدها، تحلقوا..

يندس بينهم (أبا بريا). يذكر أن جلسته كهاته، كان يجلسها منذ أربعين سنة مضت. حين كان جنديا في صفوف الجيش الإسباني. إنه لا يفتأ عن ذكر أماكن الغزوات وتواريخ حدوثها.

بأفواه مفتوحة، ينصتون ببلاهة وأسنان متناثرة. كما كؤوس الشاي على رقعة الطاولة. المتسخة والتي أكلتها العفونة.

تتساقط كلمات فاحشة، من أفواههم القذرة. تجلب بنتانتها، ذباب الأحياء العتيقة، إلى مجلسهم هذا.

أسنانهم المتبقية في أفواههم صدئت ببقايا السجائر، ودخان ما ينفثونه وما يشربون من خليط الكيف.

وأنوف تقطر زعفرانا أسود. من عطوس، يحضر من نواحي المدينة. تلاعب الأفواه الدخان المندفع من داخل أجوافهم. وتتلذذ الأنوف بالعطوس الذي أحضره (السي العياشي). من سوق جبل الحبيب.

بكلامهم الفاحش، يحاولون أن يثبتوا رجولتهم. كمراهقين يبدون في كلامهم. شيوخا هم في ملامحهم.

تعجبت وأنا أساير تفاهتهم. تفاهة قوم أعلنوا التمرد على الأخلاق. أنصت وأراقب..

أستحضر أوصاف الرجال النبلاء. الشجعان الذين دافعوا عن هذه المدينة وعن تاريخها. شهداء كانوا حقا. أما هؤلاء فأراهم كرماد نار، استدفأ بها ركب مر

من هنا منذ حين. تركوا تاريخا مجيدا. لطخه هؤلاء، بكلامهم الفاحش ولغتهم الماجنة.

غبار السنين يعلو ملامحهم وملابسهم. ولحاهم التي غير الزمن لونها. شعث شعر بعض منهم. رغم كل ذلك فهاهم يضحكون، يتغامزون.

أتأمل وجوههم الكاذبة وضحكاتهم الزائفة. أبحث عن سر ذلك. فأستنتج أن الواحد منهم يضحك على الآخر. على بعضهم.على أنفسهم. بأفواه مغشوشة وبكلمات وحركات مغشوشة كذلك.

في ساحة (الفدان) يتم كل ذلك.

ساحة بسق نخيلها. وتفتحت زهور أحواشها. لكن ها هم يلطخون هواءها الندي. تتناثر الكلمات فتصل أعشاش فراخ مهجورة. غادرتها مكرهة حين وصلت إليها كلماتهم الماجنة. استحيت. فغادرت دون عودة.

أعلنوا اللعنة على الوقار. فكنت بينهم كمن تقاذفته أمواج أيام عصيبة. على شاطئ الحقيقة. حقيقة يشوبها كثير من الإحباط. يجر عربتها بغال غير معلفة، عليلة. إلى هاوية لو سقطت فيها لكانت نهاية حتمية مأساوية.

أحضر فأغوص في محيطهم الموبوء، لم أدر ما الدافع الذي حفزني على ذلك. كل ما أذكر هو أن (أبا بريا) هو من دفعني لفعل ذلك.

كثيرا ما كان يذكر لي ان جلساتهم هذه تفيد الإنسان في حياته، وتقوي شوكته. وقد تضيف لك تجارب عديدة وحيل تعينك على فهم الغاز الحياة وأسرارها الغامضة. يحدثني بكل ثقة. حاورت نفسي في سكون. قبل أن أحاورهم. لم اشعر والكلمات تتقاذف من فمي عبارات ساقطة. أدركت أن العدوى انتقلت إلي وأيقنت ذلك تماما.

يتردد آذان المغرب من مكبر الصوت المعلق على صومعة جامع االباشا. رددت وراءه ألفاظ الآذان عليَّ أغسل فمي ونفسي وأفكاري. ينتهي الآذان وأنتهي مما

رددته، وأنا أنظر في وجوههم الشاحبة. يخاطبني (با بريا) وهو يملأ شقاف السبسي بالكيف.

- اذهب أيها الشيطان

تركت المكان ونزلت الدرج في توؤد ة وأنا أردد مع نفسي:

أفواه مغشوشة .. كلمات مغشوشة ..

كان سرب الزرازير يحلق مسرعا فوق ساحة الفدان. وكانوا هم يحملقون فيه ببلاهة ويبتسمون.

***

قارب العبور

النهار مشمس. يغري بالمكوث داخل البحر مدة طويلة. أثار انتباهي حشد من الناس. تجو قوا حول مكان في الضفة الأخرى من النهر.

تتدلى رؤوس من فوق الأحجار الناتئة. يريد أصحابها استطلاع حدث، ربما كان قد وقع في تلك اللحظة.

في الضفة المقابلة، أقف منتظرا زورقا يجتاز بي النهر الفائض، بمياه البحر المالحة. هناك تتراءى رؤوس تتدافع، وأعناق تتطاول، هو شيء ما هناك يقبع بين شقوق الصخور.

في ثلم صخرة، كان يظهر جسم يتقوقع في ركن. يحوقل البعض، ويبسمل الآخرون. بالتدافع والتلاكم قد تفقأ عين، إن لم يأخذ صاحبها احتياطات زائدة، وهو يشق طريقه بين الجموع.

كنت كالآخرين، أتلهف لاستطلاع ما يحدث. أظنه مادة دسمة صالحة للنشر.

لقد مرت شهور، لم أنشر ولو مقالا واحدا. اعتادت نفسي أن تشبع فضولها. من مثل هذه الأحداث. انتظر طويلا قدوم قارب العبور الذي تأخر كثيرا. فكرت أن أعبر المسافة سباحة، لكني أدركت أني لا أتوفر على مايوه السباحة.

يتأخر مركب العبور وأنا في لهفة وعجلة من أمري. بين الجموع، هناك من لا يهمه أمر هذه الجوقة الآدمية، بقدر ما يهمه شيء آخر.

شبح يتراءى هناك، يتحرك ثم يخلع ملابسه، ويرتمي في وهلة بين أحضان الماء. كنت أرقبه بفضول. عطش جسمه. الأسبقية للأبدان، يرددها وهو يرتمي وسط النهر. يتجه نحوي. استغلت فرصة اقترابه مني. سألته. لكنه تخطاني فابتعد عني. أسمعت كلمات لموج البحر. يبتسم الموج وهو ينتشر على اتساع الشاطئ. صفقت المحارات حين لامسها.

ترتمي حبيبات الرمل فوق جسدي، تعانقه بشوق ثم تتفرق هاربة، عائدة إلى البحر. تداعب الشعيرات الصغيرة التي نبتت في جلدي، والتي تغير لونها من فرط لهيب الشمس.

تمددت لأغنم قسطا من قيلولة هذا اليوم المشمس والدافئ. ذبابة تحلق فوق وجهي، تحط كطائرة فوق شاربي. استدعتها الروائح العالقة به. رائحة السردين المشوي. كان غذائي حين مروري داخل ميناء المضيق.

الذبابة تداعب شاربي، تأخذ حقها من سمك السردين. أقفل عيني والذبابة لا زالت تطير ثم تنزل.

تحضر ذبابة ثانية ثم ثالثة، فسرب كامل بكل عدته. يتغوط على وجهي. حجبته بمنديل. بدأت أسمع أزيز الذباب وهو يتبادل أماكن النزول. أقلقني ذلك. ضيع علي لذة قيلولتي. تذكرت المبيد وما يفعله في الذباب، لو كان حاضرا معي الآن لرششته واسترحت.

كم هذه الحشرات قذرة.. ؟ بل القذارة مني آكل سمكا ولا أفكر في تنظيف فمي ويدي. أعشق رائحة السردين، وأفضل أن تبق عالقة بي طوال الوقت.

يصل القارب وتنفك عقدة الانتظار. أركبه على عجل. أريد الوصول إلى الضفة الأخرى.

يقطع المسافة بين الضفتين وأنا أرقب المكان في تلهف. لم أجد هناك أحدا حين وصول القارب. هرولت نحو مكان الحادث، و لم أخذ كامل احتياطي.

تعثرت فسقطت بين الأحجار. لم أدر كم مر من الوقت وأنا مغما علي. بدأت أصيح و أستغيث.

بعد أن عدت لوعيي. كان حشد من الناس يجتمعون حول المكان يحوقلون ويبسملون. كنت أنظر إليهم وقد تطاولت أعناقهم وتدافعت رؤوسهم. تتدلى من فوق الأحجار تريد استكشاف ما يحدث.

أشباح في المدينة

وجدت نفسي أسير بجانبه، في طريقي الذي كنت أسلكه كل صباح.. كان يعدو كالمعتوه حائرا بين تلك الدروب التي كنا نسلكها تباعا..

سألت نفسي و لم أسأله.. أسأل كل الأشياء عن مؤسس هذه الدور.. أسأل عن تاريخها. ترابها الذي بنيت به دروبها. يرددون حكايات وقصص، تختلف لكنها تتفق أن بناء المدينة عتيق وأزلي..

الأبواب السبعة والممرات الضيقة. هي صورة لتطوان.. مدينة الجبلين ، درسة وغرغيز.. يعاد سؤال النبش عله يجد جوابا.. تركته معلقا وانصرفت..

رميت بطرفي، شبح يتراءى مبتسما لي ولغيري.. يركن في زاوية مظلمة قرب فران مسلس.. ابتسامة يفرقها بيني وبين صاحبي الذي كان يعدو بجانبي.. بوجهي عنه أشحت كي لا أراه. ثم بدأت في البحث عن رفيقي في هذا الصباح..

أدركت اختفاءه ، فجأة. يشير الشبح القابع في الركن المظلم إلي.. تعجبت من شبح يفعل ما نفعل. وقلت في نفسي :

متى تحب الأشباح غيرها حتى يحبني شبح هذا الصباح..!؟

أهرول دون اتجاه، الخوف أسرعني.. عدت كريشة في مهب الريح. تذكرت أيام الحروب والقتال في سبيل العيش الكريم، وهجرة أهل الريف أيام المجاعة.. لم أعش أحداثها، لكنها ذكريات تتردد على ألسن الكثيرين كما يرددون أن سيدي المنظري هو من أسس المدينة..

أتذكر أولئك الذين صمدوا في وجه الإستعمار، رغم الموت الذي حام حولهم والدمار الذي شتت أشلاءهم.. رغم كل ذلك فقد ضلوا صامدين غير خائفين، بينما أنا الآن خائف من شبح هائم.. عقدت الهمة. التفت ناحيته رأيته مسرعا نحوي.. تسمرت في مكاني، جاحظ العينين. كدت أن أنبش بكلمة وأنا أحس به يقترب مني.. غير أنه تخطاني في سرعة البرق. استدرت. وجدته قد عانق أحدا،

كان يبدو هو الآخر شبحا مثله.. حدجته ببصري إنه صاحبي الذي كان يهرول بجانبي.. أدركت أن الإشارة لم تكن تعنيني.. وربما كانت، فتراءيت شبحا كما رأيته..

تبسمت ابتسامة ساخرة، ورددت مع نفسي :

ربما أصبحنا أشباحا دون أن نعلم ذلك ...

***

أطراف الضفة

في طريقه نحو كوخه القصديري.. كان حمو يوقع بين الفينة والأخرى على نهاية الشارع.. وعلى أفق الشروق البرتقالي الفاتح..

كان الشروق يرسم خطا أفقيا وذهبيا، بين بقايا سحب رمادية.. تتحرك في بطء، فيشيع في بريق عينيه الزرقاوتين.. فيمتد الشعاع نحو الفضاء يلامسه على عجل.. كان ذلك في أول الصباح من صباحات فصل الشتاء البارد والقارس..

كآبة الشتاء بدأت تتجمع على قمة غرغيز.. فتتقاطع وكآبة نفسه. في مدينة حلم كثيرا بالوصول إليها..وهاهو الآن يوجد بها بعد محاولات كثيرة.. يجد نفسه مندسا بين دروبها الرطبة، وممراتها الضيقة.. هو الآن على بعد كيلومترات قليلة.. حيث تتراءى له أنوار الضفة متلألئة في شساعتها. فرصة مواتية وشيء من الحظ ويكون هناك..

كان حمو في أيامه هاته يبدو حزينا ويائسا.. كئيبا كوادي مرتيل الملطخ بالمياه العفنة والقدرة.. القادمة عبر المجاري من جوف المدينة..

تتعثر الكلمات في فمه المشقق.. كلما حاول أن يعبر عن شعوره، فتمتزج بلعاب نتن بدخان السجائر المستوردة والمنتهية صلاحيتها.. قضمه لقطعة من قصب السكر، الذي نقصت وتقلَّصت كميات المساحة المزروعة منه بعين خباز..

كانت تنتشر فيما مضى على مساحات شاسعات، في زمن حلو كحلو مذاقه السكري..

كان تكرار المشاهد أمام عينيه، يذكره بأول يوم نزح فيه إلى تطوان، وهو يفكر أول مرة في أن يهجر قريته، ويحل ضيفا على هذه المدينة التي إستلذ المقام بها واستطابه..

هناك على بعد قليل منه.. كان بعض الأشخاص قد نزلوا لتوهم من حافلة قادمة من جهة ما من وسط جبال مترامية على سهول أو هضاب ربما، أو من مدينة ملَّ أهلها رتابة الأيام بها..

كان يمعن النظر فيهم.. وبالضبط نحو ذاك الآخر منهم والذي كان يبدو عليه أنه أقلهم سنا وتجربة..كان يحمل بعضا مما أحضره من متاع له، كما فعل هو حين حضر أول مرة..فتذكر لحظة الوداع التي ترك فيها أهله ورحل.. قاصدا مدينة هي حلم ومعبر حيث النجاة.. كان يعتقد ذلك وبكل إصرار..

لازال يذكر أنه حين توسط ساحة المحطة.. كانت عيناه تحاول أن تلتقط كل شيء..كل الأشياء بتفاصيلها، دفعة واحدة.. حركات الحمالين الغير المألوفة لديه وهم يجرون أو يدفعون كراريسهم المملوءة أو الفارغة..والوجوه التي يميل لونها إلى الصفرة..وتسريحات الشعر.. كل ذلك بالنسبة له حدث جديد في حياته..إنه تأثير المد الأندلسي نحو الشمال..

كانت المكالمات الهاتفية التي تتلقاها منه عائلته.. تجعلها تطمئن عليه وعلى أحواله. إنها الآن تدرك تماما أن إبنها حمو في الضفة الأخرى.. وسيرته تتداول بين أهل قريته بتفنن.. لقد إستطاع حمو أن يصل الضفة الأخرى. شيء لم يحققه غيره.. هذا ما كانت تعتقده عائلته خصوصا أمه وأبوه.. هو الآن في المهجر، يكد ويجمع المال من أجل عائلته والتي أكسبها ذلك إحتراما زائدا لم يسبق أن إكتسبته عائلة أخرى غيرها..

لقد إستطاع حمو أن يقطع البحر، إعتقاد تجزم به عائلته بينما هو في حقيقة الأمر، يقبع بمدينة من مدن الشمال، في كوخ قصديري قرب مزبلتها في طريق بن قريش يمتهن مهنة النبش في بقايا الأزبال القادمة منها..

***

ثلاثة عشر

يستفيق المكي مذعورا على جرس الساعة..ظنه ذلك في أول وهلة. لكنه سرعان ما تيقن بأنه جرس باب شقته.

تشير عقارب الساعة إلى السابعة الآ ربع.. يسرع المكي مهرولا يفتح الباب، لكنه بعد فتحه لم يكن هناك أحد وراءه.. ظل يطل برأسه في ممر العمارة فكان يبدو وكأنه يبحث عن الذي دق جرس شقته.. أقفل الباب ثم عاد إلى الداخل.

يخرج متوجها كعادته نحو عمله. يستقل الحافلة ١٣.. رقم يتشاءم به كثيرا.. تمنى لو تم له ربط صداقة مع رئيس المجلس البلدي لا قترح عليه أن يغير رقم خط هذه الحافلة التي تقله الى عمله.. انها مسألة بسيطة للغاية، ولن تكلف البلدية ولا رئيسها شيئا.. بحذف أحد العددين وتنحل المشكلة.

هي فعلا مشكلة بالنسبة له . مشكلة معقدة ويتمنى لو يستطيع إقناع رئيس الجماعة الحضرية بذلك.. لقد تذكر أن مساء البارحة قرأ إعلان الزيارة المعلق على سبورة الإعلانات، عند مدخل الشركة التي يعمل بها كرئيس لمكتب الموظفين.

عند وصوله باب الشركة لامست عيناه الإعلان من جديد والذي كتب بخط واضح..إنها فرصته، سوف يعمل على أن لا يضيعها.. سيطلب طلبه هذا من رئيس الجماعة وبكل إلحاح، حتى يجعله يوافق على ذلك.. يحدق في الساعة الحائطية، إنها العاشرة وثلاث عشرة دقيقة .. يحضر الوفد يدخل قاعة الإجتماعات.. كان عدد أفراده وهو يعدهم ثلاثة عشر فردا.. يقتحم القاعة ثم يتوجه مباشرة إلى رئيس الجماع الحضرية، ويقدم نفسه :

المكي موظف بالشركة منذ ثلاثين سنة، رئيس مكتب الموظفين .. تبسم له رئيس البلدية وأنصت لما يقول .. أتم كلامه وانصرف على موعد حدده له رئيس الجماعة الحضرية.

عند عودته إلى المكتب كان يحاول ضبط تاريخ الموعد على اليومية.. لم يكن غير يوم١٣ دجنبر من نفس السنة..

***

فهرس